

٥٠٠ هـ . ج . ولز

في الثالث عشر من أغسطس ١٩٤٦ مات الأديب العالم المفكر القصصي هربرت جورج ولز . فلم يفقد العالم بموته شيئاً كثيراً . فمن مات في التاسعة والسبعين من عمره فقد استوفى أجله أو كاد . وولز بالذات لم يغبن في حياته ولم يرض على العالم بشيء في استطاعه أن يؤديه ؛ فلقد كتب كما لم يكتب إلا الأفلون كماً وكيفاً ، ولقد فكر لبني البشر وجمع لهم حقائق المجتمع ودلائل التاريخ ، ولقد ناضل في سبيل المبادئ الإنسانية العليا نصف قرن من الزمان صالح فيه عقول هذا الجيل وترك طابعه الذي لا يحى على مرّ الأيام .

ولد هـ . ج . كما يلقيه أصدقاؤه في ٢١ سبتمبر ١٨٨٦ ببلدة بروملي من أعمال مقاطعة كنت بجنوب إنجلترا ، وكان أبوه بستانياً وأنا وصاحب حوينيت لا يدر مالا كثيراً أنا آخر ، ولاعباً محترفاً في فريق كنت الرياضي يرتزق من لعبة الكريكت . وكانت أمه خادما في دار ريفية كبيرة أو وصيفة كما يشاء أدب الإنجليز أو نفاقهم أن يسميها . وقد ساء تعليمه في المبتدأ ووقف عند حد بسبب فقر أهله ، فبدأ العمل صغيراً أولاً بوصفه صبيّاً في حانوت أصواف ، ثم بوصفه مساعداً في صيدلية . ولكنه ثار على هذه الحياة المحدودة خلف منضدة البيع وبين العقاقير ، وجاهد في التحصيل حتى ظفر بجائزة مالية تتيح له طلب العلم فيما يسمى الآن الكلية الإمبراطورية للعلوم ، وتخرج في هذه الكلية بامتياز عظيم ، ومن ثم اشتغل بالتدريس زمناً وجيزاً ، ثم انقطع عام ١٨٩٣ للصحافة والتأليف ونشر الدعوة الاشتراكية . وقد تزوج مرتين أولاً عام ١٨٩١ من ابنة عم له لم يلبث أن طلقها ، ثم من آنسة تدعى آمي كاترين روبنز .

ولكن وراء هذه السيرة المقتضبة التي قد تكون سيرة أي صحفى تافه في فليت ستريت ، أو أي مؤلف تافه في بلومزبرى ، سيرة أخرى قوية ملأى بالحوادث ،

هى سيرة عقله الكبير وقلمه الخصب . ولقد كان عقل وز بين عقول العظماء كبيراً حقاً ، ولكن بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة . لم يكن عقلاً لامعاً ذا بريق يحطف أبصار الناظرين ، او عقلاً نافذاً كالسلاح الماضى الدقيق الذى يقطع حجب الفكر ويستخرج الدر من ثناياها ، رغم كل ما اتصف به هذا الرجل من قدرة على التنبؤ ، بل كان عقلاً كبيراً خصب . وفى هذا العقل الكبير جمع وز ملايين الحقائق فى كل باب من أبواب الحياة تقريباً ، من نشأة العضويات إلى مؤتمرات الصلح ، ومن ألعاب الأطفال إلى قوانين الاقتصاد . ولقد كتب فى ذلك كله وكتب كثيراً ، بل لعله كتب أكثر مما ينبغى ، وهذا هو المقصود بخصوصية قلمه . فنحن إذن بإزاء عملاق شاهق الأبعاد هائل القوة ، ولكن أبعاده الشاهقة وقوته الهائلة تبدهُنا أكثر مما تبدهُنا صفاته الأخرى .

وكثير من قصص وز يشتمل على ترجمة للسنين الأولى من حياته ، ومنه وصف مفصل يفيض بالمرح والسخرية من الحياة التى كانت تحياها الطبقة المتوسطة الصغيرة فى عصر الملكة فكتوريا ، وهى الطبقة التى نشأ فيها وز وذاق مرارة العيش . فى قصة « الحب ومستر لويشام » (١٩٠٠) وصف لحال وز أيام كان يشتغل بالتدريس فى مدرسة ميدهرست الأولية ، ويعد العدة للزوح إلى لندن حيث يحصل من جامعتها على درجة « بامتياز فى جميع المواد » . وفى قصة « كيبس » (١٩٠٥) يعود وز إلى الظهور فى زى البطل ، فالبطل كيبس كالكاتب وز صبى فى حانوت أصواف وهو يتدرج تدرجه فى سلم الحياة . ولكنه يجد أخيراً أن حياة الموسرين لا تحقق ما كان يرجوه فيها من أحلام سعيدة . أما قصة « تونوبنجى » (١٩٠٩) فهى تصور المجتمع الذى شب وز فيه ، ومحورها صيدلى كشف عن دواء جديد فعدا به مليونيراً ثم أفلس إزاء منافسة المنافسين . وفى « سيرة مستر بولى » (١٩١٠) تعرض وز لنظام التعليم فى إنجلترا وطعن فى سلامته . أما السيرة الرسمية التى ترجم بها وز لنفسه بلغة الواقع فلم تظهر إلا فى شيخوخته .

وقد كان لنشأته الأولى أعظم الأثر فى تكوين أفكاره الأولى وأفكاره الدائمة كذلك . فوز الصغير لم تكن له ثياب لورد فونتلروى الصغير الذى أجاد تصويره أيما إجادة ، ولم يكن له تعليمه الهادئ المنتظم ؛ فقد كان رث الثياب ممزق الحذاء ناقص التعليم . وهو يحدثنا عن كل ذلك فيقول فى « آلام الأحذية » وهى

نشرة اشتراكية من نشرات الجماعة الفابية أصدرها عام ١٩٠٥ : « لقد قضيت الشطر الأكبر من طفولتي في مطبخ تحت الأرض ، وكانت نافذة المطبخ تطل على مساحة من الأرض يسدها جدار تعلوه سفافيد أمام واجهة حانوت أبي ، فكنت بذلك كلما أطلت من النافذة رأيت أسفل الناس ولم أر رؤسهم وأجسامهم كما يفعل غيرى من الأطفال الذين تفضل نشأتهم نشأى . وهكذا تعرفت على جميع أنواع الناس في كل طبقة من طبقات المجتمع ، فكانوا عندي مجرد أحذية تتحرك بل مجرد نعال تمشى . »

وقد تعارف النقاد على تقسيم قصص وز إلى ثلاثة أنواع : الأول أساطيره العلمية ، والثاني قصصه الواقعية ، والثالث قصصه الجدلية . وهذا التقسيم لا يحتاج إلى تعمق في دراسة وز ، فهو يفرض نفسه على القارئ فرضاً . أما الأساطير العلمية فمرحلتها تقع بين ١٨٩٥ و ١٩٠٨ وأهمها « آلة الزمن » و « طعام الآلهة » و « بشر كآلهة » و « حرب العوالم » و « حرب الهواء » و « جزيرة الدكتور مورو » و « الرجل الخفي » و « في زمن المذنب » و « الزيارة العجيبة » . وقد كانت هذه الأساطير أول ما كتب وز إذا تجاوزنا عن محاولاته الصحفية الأولى وهى تافهة . وموضوع هذه الأساطير الكوكب الأرضى وسكانه وحضاراته ، وغيره من الكواكب وسكانها وحضاراتها . ومسرح هذه الأساطير الأزلى والأبدى ، الماضى السحيق الذى يقاس بالسنين الفلكية والمستقبل البعيد الذى لا نعرف ولا يمكن أن نعرف عنه شيئاً . والبطل فى أكثر هذه الأساطير هو العلم . فنهج وز أن يتخيل صورة العالم وصورة المجتمع الإنسانى حين يتم إخضاع كل شىء فيهما للعلم . لذلك كانت كل أسطورة من هذه الأساطير أشبه بنبوءة ، ومن هذه النبوءات ما تحقق فعلاً . وفى هذه الأساطير يستخر وز العلم لخدمة الخيال على نسق لا مثيل له فى تاريخ العلم أو فى تاريخ الخيال ، اللهم إلا فى قصص الكاتب الفرنسى جول فيرن ، والتشابه لا يسوغ القياس . وقد جرت العادة بين النقاد أن يربطوا ما بين فن وز وفن فيرن ، ولكن الاختلاف بينهما عظيم : ففيرن يتخيل حقاً كما يتخيل وز ، وفيرن يجعل العلم أداة الخيال كما يجعله وز ، ولكن فيرن يقف عند المغامرات القصصية ، ولا يتجاوزها بحال ، أما وز فيحاول من وراءها أن يعيد بناء العالم والمجتمع وهو يستخدمها مناسبة لعرض تأملاته وشرح آرائه . وطريقته أن يخرج من

تيار الحياة ويقف من كل شيء موقف المشاهد المتأمل الذي لا يربطه بما يشاهد رابط ولا اتصاله بما يتأمل صلة . وليس هذا غريباً في ولز ؛ فلعل نشأته العلمية بين المعامل قد عودت هذا الأديب أن ينهج في أدبه منهج العالم ، أو لعل عادة التجرد هذه هي التي ألزمت هذا الأديب بدراسة العلوم في الجامعة وما بعدها . ومنها يكن الأصل ففي هذه الأساطير ينظر ولز إلى العالم وما فيه من أحياء نظره إلى السائل وما فيه من جرائم تحت المجهر . والمنهج الذي يتبعه في أدبه هو منهج العلم ؛ فالأدب عنده لا يستطيع أن يسجل صورة صادقة للحياة إلا إذا انفصل الأديب من الحياة جملة ، ووصفها وصفاً موضوعياً لا أثر للذات فيه ، أى وصفها وصف العالم الجيولوجى لصخرة من الصخور . وهذا لا يتأتى بمخرج الأديب من العالم فحسب بل يقتضى خروجه من نفسه كذلك . لذلك نجد ولز في أساطيره العلمية ينظر إلى العالم آناً بعينى ملك ، وآناً بعينى جنية ، وآناً بعينى عملاق ؛ وبذلك أمكن لولز أن يرى الحشود البشرية في مجموعها ، وأن يستعرض موكب الحضارة من بعيد ، وبذلك أمكنه أن يرجم بما عساه أن يكون هدف هذه الحشود العظيمة من الأحياء ، وأن يطالع على ما تشكو منه «الإنسانية» من أوجاع ، وأن يرسم للناس فى حدود تقديره طريق الخلاص . وقد وجد أن طريق الخلاص هو طريق العلم . ولقد يكون ولز مصيباً فى تقديره إذا كان موقف المصلح من المجتمع موقف الطبيب من المريض بجسمه ، ولقد يكون مخطئاً إذا كان موقفه موقف المحلل النفسى من المريض بنفسه . والأرجح أن موقف المصلح من المجتمع موقفهما جميعاً . ولقد استطاع ولز بأساطيره العلمية هذه أن يبلغ مكاناً موقفاً بين الكاتبين ، ولكن نصيب الأدب فيه يبدأ بالطور الثانى من أطوار إنتاجه ، طور القصص الواقعية ، طور « كيبس » و « سيرة مستر پولى » و « تونونجى » . وبهذه القصص الواقعية وحدها كان يمكن لولز أن يخلد فى عالم الأدب ، وبها وحدها يجوز لمن يشاء أن يلقبه بخليفة دكتور العظيم ؛ فالنفس الذى يشيع فيها نفحة من نفسه ، والبيان من بيانه . بل إن ولز قد يتجاوز دكتور فى بعض المواضع من ناحية صفاء الأسلوب وعمق التحليل . وفى هذه القصص الواقعية يصل ولز إلى كثير مما وصل إليه دكتور ، فيوفق مثله لخلق الشخصيات الحية المكتملة التكوين ، ويسخر مثله من العصر وحضارته لا عن طريق التبشير الصريح

والتعريض المباشر ، بل بما يخلق من شخصيات وما يسرد من وقائع . وهو يهجو الطبقة البورجوازية طبقته ، لا بالنقد ولا بسباب الغاضبين ، ولكن بالوصف الأمين لما يقول أبنائها وما يفعلون . وعلى الجملة فوز يدرك في هذه القصص الواقعية مهمة الفنان ويحققها ، فهو لا يستثير الناس على معائب المجتمع الإنجليزى بل يصحكهم منها ، وهو لا يستخدم أبطاله لشرح نظرياته في الحياة ، ولكن يستخدمهم لشرح نظرياتهم إن مستر پولى رجل من دم ولحم لا مجرد صورة أو كاريكاتور . ونحن نضحك منه حقاً ولكننا نعطف عليه كذلك ؛ فهو نموذج للرجل الحائر الذى خلقته الحضارة الحديثة وحطمته في وقت واحد ، ذلك الرجل الذكى الذى فقد نفسه وسط هذه الحركة الكثيرة وخارت قواه في تيار الحياة الجارف فاشتبهى أن يغرق ، ولكن تيار الحياة لفظه بالرغم منه على الشاطئ بين الحصى والرمال ، فعاش كالمسكة خارج الماء . إن مستر پولى رجل مكتمل الرجولة ، وهو متزوج منذ خمسة عشر عاماً ، ودأبه في الحياة أن يحتفظ بحيوانته التافه الذى لا يتردد عليه الناس . أما نفسه فخائعة ، وأما بدنه فسقيم ، والحياة عنده لم تعد تحتل . لذلك يعقد عزمه على الانتحار . وليس بينه وبين الانتحار إلا مستقبل زوجته ، فيمتدى إلى حل يضمن به موته وحياة زوجته ، وذلك الحل هو إحراق الحانوت والاحترق فيه ، فباإحراق الحانوت والاحترق فيه تستولى زوجته على التأمينين . ويخلص هو من شقائه . ويحترق الحانوت ولكن مستر پولى لا يحترق ، بيد أنه يحتفى على أية حال بعد قليل ، ويبدأ الحياة من جديد هائماً على وجهه في طرقات إنجلترا ، جيوبه فارغة ورأسه عامر بالأحلام . وما من شك في أن شخصية مستر پولى نقد للمجتمع الإنجليزى في نهاية القرن الماضى ، أو نقد لحياة البورجوازية الصغيرة على وجه التخصيص . ولكن النقد الذى نجده في شخصية مستر پولى لا يقاس بالنقد الذى نجده في شخصية كيميس . فكيميس كپولى وكولز ذاته بورجوازى صغير ، وهو غلام يعمل صبيّاً في حانوت أصواف كما كان خالقه يعمل في حدائته ، وهو يعانى ما يعاينه سائر صبيان الحانوت من شقاء العمل والجحمان وخنق الحرية ؛ فهم يعيشون في عنبر قيوده مضية شان جميع العنابر ، ومع ذلك نسمع منهم هذا الحديث وهم في العنبر قبل أن ينطفىء النور كالمعتاد بحكم القوانين التى وضعها صاحب الحانوت :

« وتابع بجيتر القراءة ، فقد أثارت اهتمامه افتتاحية عن شؤون الهند أبلغ إثارة . قال :

— إن من الحق أن يعطى هؤلاء السود حق التصويت

قال كيپس :

— وأى حق ؟

قال بجيتر :

— إنهم من طينة غير طينتنا ؛ فليس لهم ما للإنجليز من منطق رشيد ، وليس لهم ما لهم من خلق متين . وإن في خصالهم نوعاً من الغدر والتحايل ؛ فشهادة الزور مثلاً وأشباهاها من التصرفات التي لا يعرف عنها الإنجليز شيئاً في طبيعتهم . وكيف يعرف الأمانة من كان في جنبهم ومذلتهم ؟ إنهم لم يعتادوا الحرية كما اعتدناها ، ولو أعطيت لهم لأساءوا واستخدموها . أما نحن . . . آه . . . اللعنة ! فقد انطفأ النور فجأة ولا يزال أمام بجيتر عمود كامل عن لغو المجتمع الراقى كان يجب أن يقرأه . »

ومثل هذا التهمك اللاذع بأبناء البورجوازية الصغيرة وبآرائهم وآمالهم قد يبلغ في « كيپس » مبلغ السخط . ففي « كيپس » سخط على نظام التعليم ، وسخط على عقم الحياة الريفية ، وسخط على استبداد الموظفين الجهال ، وسخط على العقلية الإنجليزية الضيقة ، وعلى « الغباوة ذلك الحكم المطلق في بلادنا » بلغة وز . وهذا كيپس مضطجع إلى جوار زوجته بعد مشاحنة سفهية سببتها غباوتها ، ووز من ورائها يقول :

« لولا ضيق العقل . . . لولا ذلك الوحش لما تلمس كل منهما أتفه الأسباب ليؤذى صاحبه كل هذا الإيذاء المرير . لولا ذلك الوحش لخرج من طفولتهما الذهبية وشبابهما اليانع ثمر سعيد ، واستيقظ فيهما وعى يستقبل أفكار العالم ، ولنفس ضوء الأدب المنعش إلى قرارة روحيهما ، ولتفتحت نفسها بدل هذا الاستغلاق ؛ لإدراك الجمال الذي ننعم به نحن المجدودين ، ولرؤية ذلك الحلم الذي تصفو به الحياة إلى الأبد . لقد سخرت منهما في الماضي ، وإني لأسخر منهما الآن لعلك أن تسخر معي منهما كذلك . . . ولكنني أنقذ في ظلام روح كيپس وزوجته كما أراها الآن قطعتين ورديتين من المادة الحية المرتجفة ، وجسدين أشبه بجسدي طفلين يشكوان الجهل والسقم وسوء الغذاء ، طفلين

يتعذبان ، طفلين مشاكسين مضطربين يشقيان ولا يعرفان لشقاؤهما سببا ، طفلين يطبق عليهما مخالب ذلك الوحش الجهنمي .

كذلك الأمر في « تونونجي » وهي أعظم قصصه الواقعية جميعاً أو من أعظمها على أقل تقدير ؛ فهي سجل أمين لحياة الطبقة المتوسطة الصغيرة في إنجلترا أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهي تصف ما أصاب المجتمع الإنجليزى إبان هذه الفترة التاريخية من تصدع ، وتصور خروج الأرستقراطية إلى الأبد من الحياة الإنجليزية ، ودخول فئة من الأدعياء ذوى الجاه والمغامرين الموسرين ليحلوا محلها . وفي هذه القصة نجد السخط قوياً كذلك . فالعلم بوندريشو صيدلى ريفى ابتكر مستحضراً جديداً ، فرج من ورائه الملايين ، ثم أفلس حين ظهر له منافسون جدد ، وقد جاءه كل هذا المال الكثير دون أن يحدث فى شخصيته وأخلاقه تطور يقابل ارتفاع قدره فى الحياة :

« لقد كان عمى يملك فى أوج غناه نقداً وعيناً نحو مليونى جنيه على أقل تقدير مقابل ديون جسيمة لا تعرف على وجه التحديد . أما دائرة نفوذه التى كان يتحكم فيها فقد كانت تشمل فى مجموعها نحو ثلاثين مليوناً . وقد منحه كل ذلك مجتمعا الذى تحكمه الفوضى وتختل موازينه . نعم ، كافأه مجتمعا كل هذه المكافأة ؛ لأنه يجلس داخل غرفة ويشغل بالدسائس ويطلق فى الناس الأكاذيب . فعمى لم يخلق شيئاً ولم يبتكر شيئاً . ولست أستطيع أن أدعى أن أى مشروع من المشروعات التى نظمناها قد عاد بأذى نفع على الحياة الإنسانية . »

وما هذا الصيدلى إلا نموذج لطبقة الأدعياء والمغامرين الذين مكنتهم الصناعة والنظام الرأسمالى من اقتحام العالم والاستيلاء عليه وطرده طبقة الأشراف منه بعد أن ظلوا آمنين دهرأ وراء زراعتهم ونظامهم الإقطاعى . وقد ذهب الأرستقراط وتركوا وراءهم خراباً ثقافياً وفراغاً مديناً عجز البورجوازيون من بعدهم عن تعميمه وملئه . ومع ذلك يبدو أن ولز مغتبط بهذه النتيجة ، على العكس من جولزورذى الذى عالج الموضوع نفسه فى ملحمة « فورسايت » والأسف يملأ قلبه على المجد الذى كان ، وللبربرية التى سادت المجتمع من بعده .

وقصة « تونونجي » هى آخر ما كتبه ولز فى باب القصص الواقعية . وما من

شك في أنها ومثيالاتها تشتمل على مواضع ما كان ينبغي أن توجد فيها ، وولز لم يستطع أن يتجنب فيها دائماً إعلان آرائه في السياسة والاجتماع والأخلاق الخ ، من كل ما يفض من قيمتها الفنية ، وتحت المرح الذي يحيط بيولي وكيس والعم پوندريقو نرى وجه ولز العبوس ، ولز المصلح ، ونقرأ في أساريه سخطه على المجتمع . ولكننا نستطيع بوجه عام أن نحكم بأن شخصية الكاتب تختلف وراء أشخاص قصصه الواقعية ، كما نستطيع أن نحكم بأن هذه القصص الواقعية برغم ما فيها من استطراد ملحوظ منشأة على تصميم واضح لا يخطئه أحد ، وهذا ما يجعلها آثاراً أدبية من طراز عظيم . ولو أن لوڤ ما لآستاده دكتور من رحابة في القلب وحرارة في العواطف ومقدرة على العطف لما تخلف عنه في كثير أو قليل ، فرحهما سواء وسخريتهما واحدة ، وفهمهما لتفاصيل المجتمع البورجوازي الصغير يكاد يكون متساوياً . بل إن لوڤ ما لدكتور من عيوب ، فكلاهما يبلغ قمة فنه حين يلتزم وصف الحياة في الطبقة المتوسطة الصغيرة التي نشأ فيها ، وكلاهما يخفق إخفاقاً واضحاً كلما خرج من دائرة هذه الطبقة واجترأ على غيرها من الطبقات . ومهما يكن من شيء فسيرة ولز الأدبية تنتهي هنا . فقد انصرف قبيل عام ١٩١١ إلى تجبير نوع ثالث من القصص ليس فيه من الأساطير العلمية ولا من تصوير الواقع شيء : انصرف إلى تجبير القصص الجدلية أو القصص الاجتماعية أو القصص الفكرية أو ما شئت من الأسماء التي لا تختلف كثيراً وتتفق جميعاً في أنها ليست من نصيب الفن . ومن هذه القصص « مستر بريتلنج » و « جون وبيتر » و « آن فيرونيكا » وكثير غيرها مما لسيه الناس أو كادوا . ومنهج ولز في هذه القصص الجدلية يختلف عن منهجية السالطين في الأساطير وفي الواقعيات . لقد ضاق بالخيال ذرعاً ، فعدل عنه وكتب عن الواقع . وها هو ذا يضيّق بالواقع ذرعاً فيعدل عنه ويكتب عن الأفكار . ولكل قصة من قصصه الجدلية « هدف » أو « رسالة » . والهدف العام هو مناقشة الآراء الاجتماعية وتحليلها . والرسالة العامة هي الإصلاح الاجتماعي . أما وصف الحياة المجرد فلم يعد ولز يكتب به ، وهذا دليل على أن طبيعة المفكر المصلح فيه أقوى من طبيعة الأديب الفنان . وما هذا التحول في ولز بظاهرة جديدة تماماً أو خفية تماماً ، فبذور التبشير موجودة في كل عمل من أعماله الأولى حتى أعظمها شأنًا وأقربها إلى روح الفن الصرف . وولز قبل سواء يعلم بأمر هذا التحول فيه ،

بل لقد أعلنه إعلاناً في مقال له عن « القصة المعاصرة » نشره عام ١٩١١ في عدد نوفمبر من مجلة « فورتنایتلي ريفيو ». وفي هذا المقال ، أوفى هذا البيان بتعبير أدق ، حدد ولز وظيفة القصة كما يفهما هو ، فإذا بها وظيفة لا تقوم بها « آلة الزمن » ولا تقوم بها « كيميس » أى لا تقوم بها أساطيره العلمية ولا تقوم بها قصصه الواقعية . فبادئ القصة في بيانه ثلاثة : أولها أن القصة استطرادية في طبيعتها ، فهي نسيج من خيوط كثيرة قد تختلف في ألوانها ، وهذا يقضى على مبدأ التصميم الذى يلتزمه الفنانون في القصص . وثانيها أن القصة مرنة ورحبية تتسع أو يجب أن تتسع لكل شىء في الحياة من إدارة الأعمال إلى السياسة إلى شواهد التاريخ إلى الأعمال الفاضلة إلى الأعمال الفاضحة ، وكل هذه المواد تختلط وتتسجم وتصفو في نهاية القصة ، وهذا يهدم مبدأ الوحدة . وثالثها أن القصة وإن لم تكن منبراً يستخدمه القصصى لشرح آرائه فهي « كرسى الاعتراف ونبع المعرفة ودافع النفس إلى أن تراجع نفسها مراجعة مثمرة » ، وهى كذلك معرض الآراء ومكان امتحان السلوك الإنسانى . وقد بدأ ولز يجرب هذا المنهج فى القصة قبل أن يصدر بيانه ببضع سنوات ، ودأب عليه بقية حياته ، فانتقل بذلك من قائمة الأدباء إلى قائمة الكتاب الاجتماعيين .

أدب ولز أدب البورجوازية الصغيرة ، وهو امتداد لهذا النوع من الأدب الذى وضع أساسه دكتور وبنى عليه جورج إليوت وأضاف إليه أرنولد بنيت . فما المراد من هذه العبارة ؟ لاشك أن نشأة ولز فى أسرة من أسر الطبقة المتوسطة الصغيرة قد ترك فى آثاره خصائص يتفرد بها أبناء هذه الطبقة دون سواهم ، فجاء أدبه بهذا المعنى من أدب البورجوازية الصغيرة . وأبسط مثال لذلك ضخامة إنتاجه التى يعجز دونها الكثيرون ، وهى ضخامة تدل على جده ودؤوبه على العمل سواء فى الاطلاع أو فى التحرير . والجهد والدؤوب على العمل خاصتان تتميز بهما البورجوازية الصغيرة أكثر مما تتميز غيرها من الطبقات . كذلك الحال مع أسلوبه ؛ فهو ليس بالأسلوب الحر السوى الذى يؤتاه صاحبه ويعمل على إتقانه بقية عمره ، بل هو أسلوب غير ثابت الصفات يتراوح كثيراً بين القوة السكسونية والظنطنة اللاتينية ، فيه من إتقان الحريص شىء وفيه من إهمال المتعجل شىء ، وهو أسلوب طموح يحس قارئه بأن صاحبه يحاول الاستفادة

من مستصعب النكلم فيوفق آناً ويحقق آناً ، وهو أسلوب يتفاوت كثيراً بين الصدق والادعاء . وعلى الجملة فهو أسلوب ذو شخصية تشبه شخصية صغار البورجوازيين ، بعض جوانبها يدعو إلى الإعجاب وبعض جوانبها كرهه تمجحه النفوس ، ولكنها في كل حالة تحاول أن تثبت وجودها وتفرض نفسها على الناس فرضاً : ولكن أدب و ل أدب البورجوازية الصغيرة بمعنى آخر كذلك ؛ فهو يصف حياة هذه الطبقة ومشاكلها وصفاً مفصلاً يوشك أن يكون جامعاً مانعاً . وول مع طول اشتغاله بالاشتراكية ليس بالكاتب العامل الأصيل الذي وقف بيانه على تصوير الحياة البروليتارية بمعناها الصحيح ، وإنما هو كاتب من فقراء المتوسطين كتب عن فقراء المتوسطين . وبؤس الإنسانية عنده يبدأ ببؤس الأحذية وبؤس التعليم الإلزامي ، ومشاكل الجماهير عنده تتركز في إزالة هذين البؤسين . والناس في قصصه خدم وليسوا بالخدم في وقت واحد ، وصيادلة ريفيون يجدون وراء المال ويوفقون لاقتناء الكثير منه ، ومدرسون لهم في الحياة آمال صغيرة وأطاع تافهة بعضها يتحقق وبعضها يخيب . والشخصيات عنده شخصيات فردية تتحرك بالذوايق الفردية أكثر من سواها . فولز أديب البورجوازية الصغيرة بالمعنى الذي أراده القصصى الأمريكى هنرى جيمس حين كتب يقول : « أنت أول من وصف الطبقة المتوسطة الصغيرة في إنجلترا وصفاً خلا من التنميق وخلا من الغرابة وخلا من الإسراف وخلا من الخيال الدخيل الذي يكثر في أدب دكتور مثلاً فيفضل القارئ ، ويكثر في أدب جورج إليوت فيخرج به عن الجوهر . فلقد وصفت ما في هذه الطبقة من الابتذال بروح هي روح العالم وروح المؤرخ معاً ، ولقد رأيت تفاصيل الحياة بين أبناء هذه الطبقة على هذا الضوء القوي ، ضوء العلم والتاريخ . »

على أن أدب و ل أدب البورجوازية الصغيرة بمعنى آخر أكثر عمقاً من كل ما تقدم ؛ فهو ليس بمجرد أديب من صغار البورجوازيين يكتب للبورجوازية الصغيرة عن حياة البورجوازية الصغيرة فيجيد الكتابة والتصوير . وهو ليس بمجرد مرآة صادقة تنعكس فيها حياة صغار المتوسطين ، بل هو الأديب الذي « يعبر » عن هذه الطبقة في كل شيء من حيث ظروفها الاجتماعية والاقتصادية ، ومن حيث فلسفتها السياسية والأخلاقية ، ومن حيث آلامها وآمالها في الحياة ، ومن حيث شخصيتها الإنسانية التي تميزها عن سائر طبقات المجتمع . فهو إذن

مرحلة في تاريخ الفكر الإنساني والأدب الإنساني؛ وهو ظاهرة في تطور المجتمع لا سبيل إلى فهم ذلك التطور إلا بدراستها . وصلته بالبورجوازية الصغيرة صلة عضوية حتمية ، فهو المثلث لوجودها المظهر لقوتها المفكر لها المعبر عن أهدافها في الحياة .

وآيات ذلك في أدبه كثيرة فولز قد نشأ في أواخر القرن التاسع عشر مع نشوء الحركة العاملة ومع نشوء الفلسفة الاشتراكية بنوعها الماركسي الثوري والبرودوني التطوري ، فإذا كان موقفه من العمال والاشتراكيين ؟ آمن ولز بحقوق العمال حقاً ، ولكنه لم يؤمن بها إيمان عامل بل آمن بها إيمان صديق للعمال . فهو يؤمن بحقوق الإنسان أكثر من إيمانه بحقوق العمال ، وهو يؤمن بحقوق العمال لأنها جزء لا يتجزأ من حقوق الإنسان . وانتصاره للطبقة العاملة دون غيرها من الطبقات طبيعي بحكم الجوار ؛ فطبقة البورجوازية الصغيرة أقرب ما تكون إلى البروليتاريا ، وهي أقرب إلى البروليتاريا منها إلى الطبقات الأخرى ، وانفصال المفكرين والمثقفين عامة من صغار البورجوازيين عن طبقتهم البورجوازية الصغيرة ، وانضمامهم في المبدأ والأمان إلى جموع البروليتاريا أمر مألوف أو شك أن يكون قاعدة في الحركات السياسية . لهذا كله اختار ولز من بين النظريات الاشتراكية الكثيرة الشائعة أكثرها اعتدالاً وأقربها إلى فهم البورجوازية الصغيرة ، فأمن بنظام الملكية المشتركة كما يؤمن كل اشتراكي ، ولكنه آمن كذلك بالانتقال المقسط أو بالتدرج أو بالتطور ، ولم يؤمن بالانقلاب الكامل أو بالطفرة أو بالثورة . آمن ببرودون ولم يؤمن بماركس ، فصدق عليه وصف ماركس لبرودون بأنه أستاذ في الجامعة له قدم في الطبقة البروليتارية وقدم في الطبقة البورجوازية ، فهو مذئذب بينهما حائر يجتهد في التوفيق بين أمانيهما فيخسرهما جميعاً . وولز يؤمن بحقوق الإنسان عامة دون حقوق العمال على وجه التخصيص ؛ لأنه يحس بوعى منه أو بغير وعى أن الإنسانية لا تقتصر على العمال والعمالين كما يقول الماركسيون ، بل تتسع حتى تشمل كذلك الطبقات العاملة المألكة والطبقات المألكة فحسب . وهذا اختلاف جوهرى في وجهة النظر ، منشؤه أن ولز يقف في منتصف الطريق بين المستغلين والمستغلين . ولأنه يقف بحكم طبقته ومصالحها في منتصف الطريق بينهما نراه يرى وجهة نظر الطرفين ويؤمن بهما جميعاً . ولأنه يرى وجهة نظر الطرفين ويؤمن

بهما جميعاً نراه يعتقد أن للطبقات العاملة حقوقاً أولها امتلاك وسائل الإنتاج بالاشتراك ، ويعتقد أن للطبقات المالكة حقوقاً كذلك أولها تعويضها عن وسائل الإنتاج التي تنزع من يدها . ولأنه يرى وجهتي نظر الطرفين ويؤمن بهما جميعاً نراه يعترف بشخصية الطبقات غير العاملة ويعترف بشرعيتها ضمناً ، وهذا ما لا يفعله الماركسيون الذين يعدون الطبقات المالكة طفيليات تعيش على جسم البروليتاريا وتأكل ثمار العاملين ، ويعدون الملكية الفردية لونهاً من ألوان الاغتصاب يحميه القانون . ولأنه يعترف بشخصية الطبقات المالكة وبشرعيتها نراه يؤمن بالتدرج في تطبيق البرنامج الاشتراكي . ولهذا كان طبيعياً أن يجد وز في الجماعة الفابية منظمة كافية لنشر الاشتراكية بين الناس ثم تطبيقها على المجتمع ، فانضم إلى برنارد شو وسيدني وب وبياتريس وب وجراهام والاس ، وساهم بنصيب لا بأس به في حركة التنوير الاشتراكي التي اضطلع بها الفايون . وبهذا المعنى يصح أن نصف وز بأنه أديب إنجليزي لحماً ودماً .

فالبورجوازية الصغيرة هي العمود الفقري للشعب الإنجليزي ، وعقلية صغار البورجوازيين هي العقلية السائدة بين أبناء هذا الشعب ؛ فهم يطلبون الاشتراكية ولكن بمقدار ، وينشدون التغيير ولكن في الحدود البطيئة التي تملها الحاجة الملحة ويأذن بها النظام . وهم شديدو الفردية أشخاصاً وشعباً بقيسون كل شيء بمقياسهم ، وينفرون من كل تأثير خارجي ، ويرفضون كل فلسفة أو نظام من شأنه أن يحدد إمكانات التضخم أمام « الأنا » .

ووز شديد الإيمان بالمنهج العلمي . وشدة الإيمان بالمنهج العلمي كانت خاصة هامة من خواص البورجوازية الصغيرة والكبيرة في إنجلترا وفرنسا وحدها إبان القرن التاسع عشر ، أي إبان نماء البورجوازية وعنفوانها . وذلك لأن البورجوازية الإنجليزية والبورجوازية الفرنسية قد شبَّتا في جو من الحرية بوشك أن يكون مطلقاً بعد تصارعهما المشهود في الحروب النابوليونية ، واتهما من تلك الحروب إلى تقسيم العالم بينهما ، وبذلك فضجت الرأسمالية الإنجليزية والرأسمالية الفرنسية في جو من الأمان أشبه ما يكون بأمان الاحتكار ، مصدره استئثارها بأسواق العالم دون غيرها من الرأسماليات المتأخرة في الدول الأخرى ، فلاغرابة أن تؤمنا بالعلم مصدر رخاؤهما ، وبالعقل أس سعادتهما . أما البورجوازية الألمانية فقد نشأت وشبت وشاخت في جو من العنت والمحاصرة والاضطهاد

الخارجي ، فلا غرابة إذن أن يتصف الفكر البورجوازي الألماني في كل مرحلة من مراحلها من نخته إلى شينجلر بالثورة على العقل والإيمان بالعاطفة فالبورجوازية بوجه عام لم تكن دائماً كما نعرفها نحن أبناء القرن العشرين قوة نائرة على قوانين العقل نائرة على منهج العلم ، تؤمن بالعاطفة والخرافات في كل باب من أبواب النشاط الإنساني ، وتنجب من المفكرين أمثال سوريل وشينجلر وروزنبرج وألدوس هكسلي ، ومن الأدباء أمثال ت. س. إليوت وچيمس جويس و د. ه. لورانس ، ومن الفلاسفة أمثال أدنجتون وبرجسون وبرتراند رسل ، بل تنجب من العلماء من يجلسون حول المائدة ويخاطبون الأرواح أمثال أوليفر لودج وكونان دويل . كانت البورجوازية بين نهاية القرن الثامن عشر ونهاية القرن التاسع عشر ، أي بين عام ١٧٩٤ عام الإرهاب الأكبر الذي ألغى فيه رويسبير المسيحية وأقام عبادة العقل مكانها ، وعام ١٨٩٥ الذي خلق أوسكار وايلد فيه « دوريان جراي » وألغى به العقل وأقام عبادة الجمال مكانه — كانت البورجوازية إبان هذه الفترة تؤمن بالعلم وبالعلم وحده ، وتربط مستقبل الإنسانية وسعادتها بفتوحات العلم التجريبي في المعمل ، وبتفوحات العقل المشاهد بين طبقات الأرض وقبائل الهمج ، وبتفوحات الذهن المبتكر بين آلات الإنتاج ، وكانت بورجوازية متفائلة تؤمن بفلسفة « التقدم » أي مطمئنة إلى تقدم البشر المطرد ؛ لأنها كانت بورجوازية منتصرة مستقرة لا تجد ما يهدد سلامتها ، فلما اكتهلت تكشف ما في نظامها الرأسمالي من تناقض داخلي ، فبدأت الرأسماليات الجديدة (ألمانيا وأمريكا أولاً ، ثم اليابان وإيطاليا) تنازع الرأسمالية الإنجليزية والرأسمالية الفرنسية ما كان لهما من سيطرة مطلقة على أسواق العالم ، من كل ماجر إلى التسابق الاستعماري والحروب السكية ، وبدأت عوامل الهدم الداخلية تنشط بظهور الحركة العاملة التي تهدف إلى إلغاء النظام الرأسمالي جملة وإحلال نظام عاملي محله . وإزاء كل هذه الظروف التي جدت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر زال عن البورجوازية الإنجليزية والبورجوازية الفرنسية ما كان لهما من اطمئنان سابق على المستقبل ، وتزعزع ما كان لهما من ثقة في « التقدم » ، وتشككتا في كفاية العقل والعلم لحل مشكلات الإنسانية ، بل ظهر منهما أنبياء مزيفون يتحدثون عن الكارثة المحدقة بالنوع الإنساني وينذرون بانهيار الغرب ، ويتوقعون حلول الساعة أو العودة إلى الهمجية الأولى ،

وانتقل التفاؤل والإيمان بالعقل والعلم والثقة التي لا حد لها في « تقدم » الإنسانية من البورجوازية المتهارة إلى البروليتاريا الفتية التي تطلب حقها في الحياة . وقد كان طبيعياً هذا التعميم الذي نجده في فلسفة البورجوازية وفي فلسفة البروليتاريا ؛ فكل طبقة من طبقات المجتمع تتحدث عن الإنسانية ومصير الإنسانية ؛ لأنها تتوهم بالحق أو بالباطل أو بهما معاً أنها والإنسانية سواء . فولز يقف في منتصف الطريق بين البورجوازية والبروليتاريا ، وهذا هو سره الكبير ومفتاح شخصيته وأدبه معا . فقد أخذ عن البورجوازية إيمانها بالعقل والعلم أيام كانت تؤمن بالعقل والعلم . فلما زال عنها إيمانها بالعقل والعلم لم يعدل ولز عن إيمانه بالعقل والعلم . لماذا ؟ لأنه ليس بورجوازيا صرفا ، ولو قد كان لكفر بهما كما كفرت البورجوازية وليئس من المستقبل كما يئس . ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً لأن له أصولا في البروليتاريا إلى جانب أصوله البورجوازية . لهذا كله ظل ولز قوة تقدمية عظيمة في المجتمع ، يبشر بالعقل والعلم ويحطم الاستسلام للعاطفة والانسحاق أمام الخرافات . وهذه دلالة بطولية هذا المفكر ؛ فقد ثبت وحده أو بين نفر قليل على إيمانه بالحياة كأنه الصخرة التي لا تتزعزع ، ورأى الأرض تسوخ تحت قدميه في أواخر القرن الماضي وأدباء الكارثة من حوله يتجهرون ، فما عدل عن إيمانه بالعقل أو بالعلم . وهذا هو نصيب البروليتاريا الحقيقي فيه . فمن آمن بالعقل والعلم دفع البشرية إلى الأمام . ولكن ولز كما أخذ عن البورجوازية القوية إيمانها بالعقل والعلم ، أخذ كذلك عنها شيئاً من التشاؤم الذي اتصفت به حين كثرت فيها ومن حولها عوامل الهدم . وقاتى ولز على مصير « الإنسانية » لا يبلغ مبلغ التشاؤم حقا إلا قبيل وفاته ، وهو لون من الشك أو الخوف المعقول الذي يدفع إليه الحرص . فولز ليس من أدباء الكارثة أو مفكريها ، وإنما هو طبيب أمين ونبي يتكهن بالغيوب . وهو يرى أن أداة التقدم هي العقل والعلم ، ولكنه يرى كذلك أن تقدم الإنسانية ليس ضرورة تاريخية ولا جبرا ماديا كما يرى الماركسيون وعامة مفكري البروليتاريا المطمئنون إلى مستقبل الطبقة العاملة ، بل هو أمر جائز إذا دامت للإنسانية شروط التقدم وهذا غير مضمون . وكثرة الأوجاع التي تشقى بها الإنسانية في القرن العشرين وهول هذه الأوجاع من حروب مهلكة ونظم مدمرة لا يبشران بخير كثير ؛ فهو إذن يرى نذراً الكارثة ولا يرى الكارثة

نفسها . ولقد وقف ولز حياته أو شطرا عظيما منها يحذر الناس وينذرهم من ما لهم إن لم يراعوا . فالعقل والعلم عنده قد يكونان أداة خراب بمقدار ما هما أداة تعمير . والعلاج عنده هو إلغاء العاطفية والعدول عن ارتجال الحلول ، ثم الايمان بنفع التصميم . فعلى المفكرين والقادة والساسة أن يخرجوا العالم من هذه الفوضى الراهنة ، بأن يضعوا له تصميما يسير عليه في مستقبله . والأصل في كل تصميم عند ولز هو تحطيم حواجز القوميات وإقامة حكومة عالمية تدير شؤون البشر من بلاد البنجوين إلى بلاد الأفيال . وهو لا يستطيع أن يتصور الأرض إلا كوكبا يسبح في الفضاء عليه نوع واحد عال هو النوع الإنساني ، وإن كان لابد من قتال فليقاتل أبناء هذه الكوكب الطبيعة ، أو فليقاتلوا أبناء الكواكب الأخرى . وبالعقل والعلم وحدهما يستطيع أبناء الأرض أن يعمروا الأرض وأن ينهضوا وأن يتطوروا في الطريق المستقيم . وهذا التصور أو هذا الحلم الجميل يبعد كثيرا عن تصور البورجوازية للمستقبل ويقرب كثيرا من تصور البروليتاريا له . فالبورجوازية لا تتصور النوع الإنساني تصورها وحدة منسجمة متماثلة ، بل تتصوره تصورها فرقا من الكائنات متجافية متنازعة على البقاء ؛ ليبقى على وجه الأرض أصلحها جميعا . والبروليتاريا تتصور النوع الإنساني نوعا من الأحياء واحدا في الجوهر وفي الممكنات ، فرقته الطبقات المالكة بمختلف الفلسفات الدينية والعنصرية والإقليمية والثقافية ، وعلمته التناحر بدل أن تعلمه التفاهم والتعاون . وفي هذه الحدود خدم ولز جموع البروليتاريا بنشر فكرة من أفكارها الرئيسية . ولكن ولز لم يأخذ فكرة الحكومة العالمية أو فكرة التصميم العالمي عن فلاسفة البروليتاريا ، ماركس وإنجلز ولنين ، وإنما اهتدى إليها بحكم إيمانه بالعقل والعلم . فمفكرته العلمية جعلته يفهم المجتمع البشري لافهما اجتماعيا بل فهما بيولوجيا ، أى جعلته يراه كما يرى نوعاً من أنواع العضويات راقيا ومعقدا . فالنوع الإنساني عند ولز حقيقة كلية ، حقيقة تميزه في ذهن العالم عن غيره من أنواع الحياة . والفروق الدينية والعنصرية والإقليمية والثقافية بين أصناف البشر إن كانت حقيقة ، فهي حقيقة جزئية لا تقوى أمام الحقيقة الكلية التي تقنع العلماء بوحدة النوع الإنساني . وولز الإنسان يلمس أن حزازات المصلحة والدين والعنصر والثقافة تمنع النوع الإنساني في مجموعه من التطور أو تدفعه إلى سبيل في التطور ينبغي أن يتحاشاها . وولز

العالم الذي ألف أن يفكر في الإنسانية تفكيره في مادة عضوية كانت في بساطة الأميا فأضحت في تعقيد أيلشتين ، ولز هذا شديد الحرص على أن يدوم للإنسانية ما كان لها من تطور ورقى . والضمان الأول في نظره هو إيجاد نظام عالمي يضع حداً للأسباب التأخر بين البشر كالفقر والجهل والمرض والحروب ، ويقضى على كل تكتل ديني أو عنصري أو ثقافي يمنع البشر من الإحساس بوحدتهم أو يدفعهم إلى التنافر وهدم الذات . واهتمامه بالنظام هو العالمي اهتمام عالم حريص على سلامة النوع الإنساني أكثر منه اهتمام مصلح حريص على سعادة البشرية في وضعها الحالي .

كذلك اهتدى ولز إلى فكرة العالمية اهتداءً بحكم موقفه المتوسط بين البورجوازية والبروليتاريا . فقربه من الطبقة العاملة هو الذي هداه إلى التفكير الاشتراكي بما ينطوى عليه من إيمان بنظام الملكية العامة وإيمان بإنشاء ولايات متحدة عالمية ، ولكن صلته بالطبقة المتوسطة جعلت اشتراكيته اشتراكية طوبوية كما يجب أن يصفها إنجيز ، أى اشتراكية عاطفية أو خيالية أو مثالية أو ما شاكل ذلك من النعوت ، أى اشتراكية لا تستند في تحقيقها على أصول مادية في المجتمع والحياة . فهو يبغي حقاً تطبيق نظام الملكية العامة ، ولكنه يكاد ينتظر من الطبقة المالكة أن تبادر إلى تطبيق هذا النظام . وهو يبغي حقاً إقامة حكومة عالمية ، ولكنه يحسب أن الحكومة العالمية ممكنة الإقامة في حدود الكادر القائم للأشياء . وهذا وجه الاختلاف بينه وبين فلاسفة البروليتاريا ، وهذا وجه صلته بالبورجوازية . وكلما كثرت من حوله الحروب والصراعات والقنابل الذرية فتح عينيه في براءة الطفل الغرير وأبصر الهاوية وتحدث فيما يشبه الجزع عن الكارثة ، وطالب مخلصاً بوجود العمل على تلافياها . ومن رأى الكارثة ولو لحظة واحدة خرج عن التعاليم الماركسية ، فالماركسية مطمئنة إلى مصير الطبقة العاملة ، وبالتالي مطمئنة إلى مصير الإنسانية . والماركسية لا يشوبها أدنى شك في أن النظام الاشتراكي قادم لا ريب فيه ، وأن الحكومة العالمية قادمة لا ريب فيها ، ومهما كثرت من حولها الحروب والصراعات والقنابل الذرية فهي تعلم أن هذه آلام الموت تعانها البورجوازية قبل انطواء نظامها الرأسمالي . نعم ! الماركسية مطمئنة إلى مجيء الدولية اطمئنان المسيحية مثلاً إلى مجيء الجنة . والماركسية تتفاءل كل هذا التفاؤل لا لأنها

تجد ما يلزمها به في عالم الأحلام أو في عالم الأخلاق ، بل تتفاعل كل هذا التفاعل لأنها تجد ما يسوغه في تطور التاريخ . فولز إذ يعلق على مستقبل الإنسانية لا يعلق على مستقبل البروليتاريا ؛ لأن مستقبل البروليتاريا في الفلسفة البروليتارية على الأقل مضمون ، ولكنه يعلق غير عامد على مستقبل البورجوازية ، فمستقبل البورجوازية لا يدعو إلى القلق فحسب بل يدعو إلى الجزع كذلك باعتراف فلاسفتها أنفسهم . ولز يعلق على مستقبل البورجوازية غير عامد ؛ لأن تصور الإنسانية يشمل البورجوازية والبروليتاريا جميعاً . وما جاءه هذا التصور إلا بحكم موقفه المتوسط بين الطبقتين ، أى بحكم تبعيته للبورجوازية الصغيرة ، فهو يزعم لنفسه مكاناً « فوق » الطبقات . فإذا كان الارتفاع عن الطبقات ممكناً فقد ارتفع ولز أكثر مما ارتفع إنسان سواه ، وإلا كان مكانه الطبيعي عين المكان الذي وقف فيه برودون من قبل ، أى مكاناً « بين » الطبقات .

كل هذه أدلة صريحة على طوبوية ولز ، فن أراد مزيداً وجدته في قصصه ؛ فالنهج الذي نهجه ولز في فن القصة يدل على موقفه من المجتمع . فإذا نحن تجاوزنا عن القصص الواقعية التقليدية التي كتبها ولز البورجوازي الصغير للبورجوازية الصغيرة عن البورجوازية الصغيرة مثل « نونو بنجي » و « كيبس » و « سيرة مستر بولي » و « الحب ومستر لويشام » ، وإذا نحن تجاوزنا عن بحوثه الصريحة كنهجته الاشتراكية الفابية و « مجمل التاريخ » و « الإنسانية : عملها و ثروتها وسعادتها » فإذا نجد ؟ نجد نوعاً من القصص غير مألوف ، هو الأساطير العلمية ، وأمثلتها كثيرة ، منها « آلة الزمن » و « طعام الآلهة » و « بشر كآلهة » و « حرب العوالم » و « حرب الهواء » و « جزيرة الدكتور مورو » و « الرجل الخفي » و « الزيارة العجيبة » ، وفيها يجتهد ولز أن يتصور مستقبل البشرية بل مستقبل الأحياء جميعاً إذا ما وضع العلم في خدمة المجتمع ، ويبني تصورات هذه على مستكشفات العلوم ونظرياتها الثابتة . فهو يتصور المجتمع البشري قد تطور ملتزماً قوانين النشوء والارتقاء التي قال بها لامارك و داروين ، فإذا بأفراده ضخام الرأس صغار الأجسام إلى حد خرافي . وهو يتصور مصلاً تحقن به العجماوات فتتطور حتى تقترب من الآدميين . وهو يتصور محلولا يشربه الناس فتشف أجسادهم حتى تمتنع رؤيتها على العيون . وهو يتخيل حرباً تنشب بين كوكبنا الأرضي وغيره من الكواكب ، إلى آخر هذا كله من إمكانات

التنبؤ التي يجوز للعالم فرضاً أن يحققها للحياة . ولكن الاتجاه العام في هذه الأساطير العامية هو إقامة المدينة الفاضلة أو الطوبى كما يسميها بعض الكتّاب أو الأوتوپيا كما يسميها آخرون . وهذه المدينة الفاضلة مدينة لا توجد إلا في عالم الأحلام ، وهي مدينة يبلغ المواطنون فيها درجة الكمال في كل شيء من حيث تكوينهم الشخصي ، ومن حيث صلاتهم الاجتماعية ، ومن حيث صلاتهم بالطبيعة ، وهي الوعد السعيد الذي ما لبثت الإنسانية تمنى نفسها به منذ فجر التاريخ . أما المتدينون فيعلمون بأن مكان هذه المدينة الفاضلة في العالم الآخر حيث كنا وحيث نعود ، وأما غير المتدينين من أمثال ولز فيعلمون أن إنشاء هذه المدينة الفاضلة في العالم الحالى أمر ممكن أو يرجون ذلك على أقل تقدير . وهؤلاء يذهبون في ذلك مذاهب شتى : فمنهم من يتخيلها جمهورية فاشية كأفلاطون ، ومنهم من يتخيلها جمهورية شيوعية كتوماس مور ، ومنهم من يتخيلها جمهورية فوضوية كولين موريس ، ومنهم من يتخيلها جمهورية علمية كولز . ولا جدال في أن الأساس الأول في أية مدينة فاضلة عند ولز هو تطبيق النظام الاشتراكي ، ولكن لاجدال كذلك في أن اهتمام ولز بتطبيق النظريات العامية على مختلف وجوه الحياة في مدينته الفاضلة أشد وضوحاً من اهتمامه بتطبيق النظريات الاجتماعية . وليس غريباً في ولز هذا الاتجاه العلمى الطوبوى ؛ فقد نشأ في قرن العلم قرن داروين ومندل ودالتون وذرذفورد وماكسويل وهكسلي ، وكان تخصصه الأول في علم الحيوان ، كما نشأ في عصر الطوبويات عصر أوسكار وايلد ووليم موريس وسامويل بتلر ، أيام تلمل مفكرو البورجوازية من ممولى البورجوازية ، فالتحزوا إلى البروليتاريا غير مدركين ، واشتغلوا بنشر الاشتراكية وبناء المدن الفاضلة .

وهذه الاشتراكية الطوبوية في ولز تؤكد أصوله البورجوازية . فلو تد كان ولز مفكراً بروليتارياً أصيلاً لما انصرف عن بناء مجتمع اليوم ، وهو شيء ماضى واضح المعالم ، إلى بناء مجتمع الغد وهو شيء أشبه ببنسج الأحلام . وهل أدل على هذه الأصول التوية من أن ولز كلما كتب القصص الواقعى كتبه عن أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة بالذات ، وكلما كتب عن « الإنسانية » جمعاء لجأ إلى الأحلام وعمد إلى لغة الخيال ؟ إن الإنسانية العامية والاشتراكية العامية والكفاح العامي ، أمور مادية وحقائق راهنة ، لا يمكن مفكراً عاملياً أصيلاً

أن يفر منها أو يؤجل النظر فيها حتى يتحقق مجتمع الغد القريب ، فكيف إذن وغدٌ وز غد بعيدٌ ، غدي يحصى بالعصور الأرضية وبالسنين الضوئية ، ولقد يحصى بالآباد يوم يتطلع الأرض للهب ويصعد منها الدخان .

هذا هو الكاتب المحترف هربرت جورج وز الذي عرف مهمة الكاتب الناجح ، وأدرك سر النجاح في الكتابة طول حياته ، وأصاب التوفيق بأول كتاب نشره في الناس ، فلم ينطو على نفسه ويكتب للخاصة ، ولم يتبدل ويكتب للدهاء بل كتب للجمهور الكبير الذي يحسب له حساب ، كتب للرأى العام ، كتب للرجل العادى . ولكن هناك استدراكا لا بد منه لفهم وز وجوزوردى وأرنولد بنيت وأتراهم من كتّاب البورجوازية الصغيرة ، وهو أن الرجل العادى الإنجليزى فى هذه المرحلة من تاريخ إنجلترا ليس العامل فى المنجم ولا الصانع فى المصنع بل البورجوازي الصغير ، ذلك المتوسط الفقير الذى يعيش على هامش النظام الرأسمالى ويتعلق بأهدابه ، وهو فى إنجلترا المعاصرة يعد بالملايين ؛ لأن الرأسمالية الفردية أو الرأسمالية القومية نظام قد تغلغل فى صميم الحياة الإنجليزية بحكم طابعها الإمبراطورى الذى يجعل البروليتاريا الإنجليزية ذاتها بورجوازية صغيرة بالنسبة إلى عمال العالم المتأخرين منهم والمتحضرين . ولقد فهم وز أبناء هذه الطبقة فهما صحيحا ، ووصفهم وصفا أميناً ، لا فى قصصه الواقعية وحدها بل فى أساطيره العامية كذلك . ولعل أنفع ختام لهذا البحث هذه الصورة الرائعة التى جاءت فى قصته « حرب العوالم » وهى صورة لأبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة لا ينقصها إلا الإطار :

« كل هؤلاء الناس ، هؤلاء الناس الذين يسكنون هذه الدور ، وأولئك الملاعين من صفار الكتبة الذين سكنوا فى تلك الناحية ، كلهم قوم لا خير فيهم ، فأجسادهم لا أرواح فيها ، ونفوسهم صغيرة لا تعرف الآمال الكبار ولا الأشواق العظيمة . ومن خلت نفسه من هذه الآمال وهذه الأشواق فهو رمة حية لا أكثر من ذلك ، رمة يتلفها الحرص ويدمرها الاحتياط . لقد رأيت المئات منهم . رأيتهم يهرولون من دورهم إلى أعمالهم وقد حمل كل فطوره فى يده . رأيتهم يركضون جزعين لاهئين ليلحقوا بقطارهم الرخيص خشية أن يفوتهم القطار فيفصلوا من وظائفهم . رأيتهم يقومون بأعمال لا يفهمون من طبيعتها شيئاً لأن الفهم يخيفهم ويضنيهم . رأيتهم يهرولون عائدين من أعمالهم

